لولا اللازِمُ؛ ما وُجِدَ المتعدِّي

د. طلال بن فواز الحسان

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ / ٢٠٢٦م

حُقُوق الطبع محفوظة للمؤلف

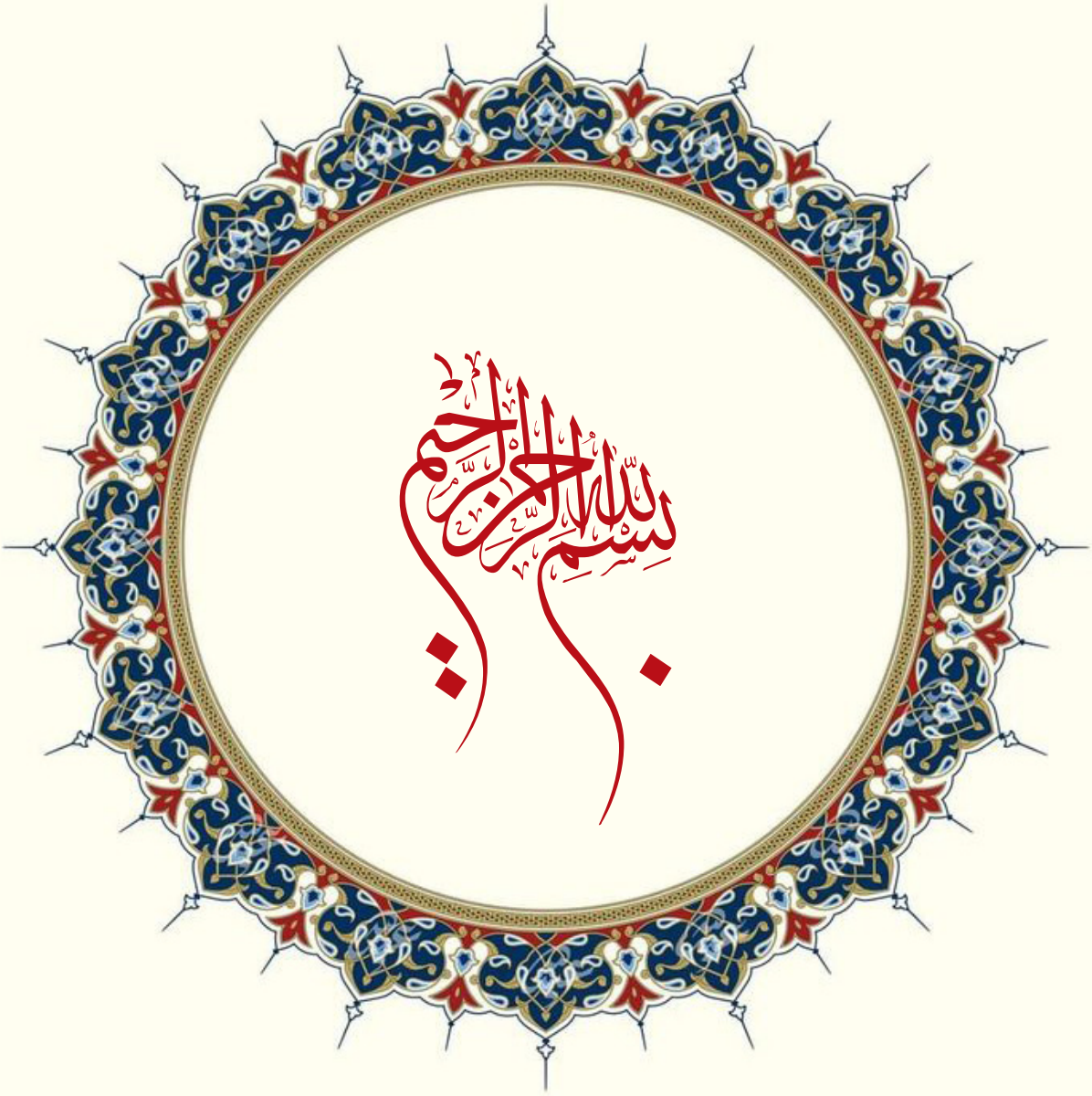
بسم الله الرحمن الرحيم

لولا اللازِمُ؛ ما وُجِدَ المتعدِّي

قَـدِمَ عالِمٌ مـن العُلَماءِ إلى أحد البلدان، فهَشَّـتْ له القلوبُ، وتطلَّعَتْ إلى فيضِ عِلمِهِ العيونُ، فأُعِدَّ له جدولٌ حافِلٌ بالدروسِ والمحاضراتِ، كأنَّهُم أرادوا أن يَغْرِفُوا من بحرِ عِلمِهِ ما استطاعوا.

لكنَّـهُ - حينَ نظرَ بعينِ البصيرةِ - رَدَّ هذا الجدولَ المرسـومَ، وقالَ بهدوءِ العارِفينَ: يكفينـي لقاءٌ أو لِقاءانِ، وأجعلُ بقيَّةَ وقتي لنفسـي. - قـالَ ذلكَ ليتـزوَّدَ من مَعيـنِ العبادةِ، ويتخلَّـقَ بصفاءِ المناجـاةِ - فتعجَّـبَ أحدُهُـم مـن ردِّهِ وقـالَ له: يا شـيخُ، النفعُ المتعدِّي خيرٌ من اللازِمِ.

فردَّ عليه الشـيخُ بتلكَ الكلمةِ التي تُسَـطَّرُ بماءِ الذهبِ، وقالَ بسكينةِ الخاشِعينَ: "يا بُنَيَّ، لولا اللازِمُ ما وُجِدَ المتعدِّي".

نَعَمْ، صدقَ الشيخُ وبَرَّ! ويا لها من كلمةٍ نافعةٍ أشرقَ فيها نورُ البصيـرةِ، فجمعتْ من الحكمةِ ما لا تجمعُهُ الصفحاتُ، وأطلَّتْ على القلوبِ فأضاءتْها، وألقتْ في الأرواحِ سرَّ التوازنِ بين العزلةِ والبلاغِ، وبين عبادةِ الخلوةِ وصَخَبِ الميدانِ.

كلمةٌ كأنَّها خرجتْ من قلـبٍ خالطتِ العبادةُ دمَهُ، ومن فكرٍ يَزِنُ الأمورَ بميزانِ السماءِ، لا بميزانِ الأرضِ.

أجلْ، فما قيمةُ الداعيةِ في الميدانِ إن نَفِدَ زادُهُ القلبيُّ؟

وما جدوى صوتِـهِ في الناسِ إن انقطعَ صوتُ مناجاتِهِ في هَدْأَةِ الأسحارِ؟

وكم من داعيةٍ ملأَ الســاحاتِ بصوتِهِ، وخلَـتْ زاويةُ قلبِهِ من النورِ!

وكم من عاملٍ في ميادينِ الخيرِ شـغلَتْهُ هدايةُ غيرِهِ عن تهذيبِ نفسِـهِ، وإصلاحِها؛ فكانَ كالسِّـراجِ يبدِّدُ الظُّلمـةَ من حولِهِ، وهو يَذْوِي في باطنِهِ حتى يكادُ ينطفئُ.

إنَّ انهمـاكَ المصلحِ في الدعوةِ، وغفلتَهُ عن العبادةِ والإصلاحِ الباطـنِ، تحتَ دعـوى أنَّ "العمـلَ المتعدِّي أولى مـن اللازِمِ"، ليسَ علـى إطلاقِهِ، وليسَ كلُّ من قالَ: "النفـعُ المتعدِّي أفضلُ" مُصيبًا دومًا.

قالَ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النفعُ المتعدِّي ليسَ أفضلَ مطلقًا، بل ينبغي للإنسانِ أن يكونَ له ساعاتٌ يناجي فيها ربَّهُ، ويخلو فيها بنفسِهِ ويحاسِبُها، ويكونَ فعلُهُ ذلكَ أفضلَ من اجتماعِهِ بالناسِ ونفعِهِم، ولهذا كانَ خَلْوَةُ الإنسانِ في الليلِ بربِّهِ أفضلَ من اجتماعِهِ بالناسِ". شرحُ العُمدةِ (٦٥٠/ ٣).

فالعبادةُ يا صاحِ ليستْ عُزلةً عن الميدانِ ولا انصرافًا عن العملِ، بل هي القُوَّةُ التي تُقيمُ أَوَدَ القلبِ، والنبعُ الذي يمدُّهُ بالحياةِ، ويعينُهُ على تحمُّلِ الأعباءِ ومواجهةِ الفتنِ. قالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ: "من يتعبَّدْ يَزْدَدْ قوةً، ومن يَكْسَلْ يَزْدَدْ فَتْرَةً".

الزُّهدُ لأحمدَ (٣٠٣).

ولذلكَ فُرِضَ قيامُ الليلِ على النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دونَ غيرِهِ؛ ليستعينَ به على مهمةِ البلاغِ العظيمِ، ويستمدَّ من ليلِ المناجاةِ لنهارِ الدعوةِ، ويزدادَ مَدَدًا على مَدَدٍ، وقوَّةً على قوَّةٍ،

كما فُرِضَ قيامُ الليلِ على أصحابِهِ في مطلعِ الدعوةِ؛ ليكونَ زادًا لقلوبِهِم، ومَعينًا على الثباتِ حينَ تثقلُ الأعباءُ وتشتدُّ

المحنُ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ [سورة المزمل: الآيات ١-٢].

فكانَ قيامُ الليلِ إعدادًا ربّانيًّا، يُربِّي القلوبَ على الصبرِ، ويُهيِّئُ النفوسَ لحملِ أمانةِ الدعوةِ، ومواجهةِ البلاءِ بثباتٍ لا يتزعزعُ.

فقيامُ الليلِ هو السُّلَّمُ الخفيُّ الذي تسمو به الأرواحُ، وتتهيَّأُ به النفوسُ لبلوغِ المقاماتِ العاليةِ في العلمِ والإيمانِ، حيثُ الصفاءُ والقُرْبُ، وحيثُ يُصطَفَى الثابتونَ.

ولئن كانَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أكثرَ الأُمَّةِ عملًا وأعظمَهم تَبِعاتٍ، فإنَّهُ كانَ أكثرَهم انقطاعًا إلى اللهِ في العشرِ الأواخرِ**، يُخلِّي نفسَهُ من الناسِ ليملأَها من النورِ، ولأنَّهُ يعلمُ أنَّ القلوبَ لا تُثمرُ إلا إذا سُقِيَتْ بماءِ العبادةِ.

وما أبدعَ ما قالَ الأديبُ الرافعيُّ في وصفِ أثرِ العبادةِ في رمضانَ: "وعجيبٌ جدًا أنَّ هذا الشهرَ الذي يدَّخِرُ فيه الجسمُ من قواهُ المعنويةِ فيودِعُها مَصْرِفَ روحانيتِهِ، ليجدَ منها عندَ الشدائدِ مَدَدَ الصبرِ والثباتِ والعزمِ والجَلَدِ". وحيُ القلمِ (٢/ ٦٠).

هكذا تكونُ العبادةُ:

زادًا خفيًّا، ومَدَدًا للروحِ، وسرًّا في التأثيرِ.

فما أشبهَ المُربِّي في ميدانِهِ بالزارعِ في حقلِهِ: إن أهملَ سَقْيَ زرعِهِ ذَبُلَ، وإن قصَّرَ في حَرْثِ أرضِهِ أعْيَتْهُ الثمارُ.

وكذلكَ طالبُ العلمِ والداعيةُ والمصلحُ: إن لم يكنْ له خلوةٌ يناجي فيها ربَّهُ، وعبادةٌ يتقرَّبُ بها إلى اللهِ زُلْفَى؛ خَفَتَ صوتُهُ في قلوبِ الناسِ ولو علا في آذانِهِم.

❋❋❋

مفاتيح الفتح من مسالك أهل العلم

قال أحدُ طُلّابِ العلم، بعد طولِ تجربةٍ ومخالطةٍ للشيوخِ والعلماءِ، - وقد خرج من تلك الصحبة بخلاصةٍ لا تُنسى -: تأمّلتُ مسالكَ أهلِ العلم، فما رأيتُ فاعلًا منهم إلا واجتمعت فيه خمسُ عاداتٍ، كأنها مفاتيحُ الفتح، وعناوينُ التوفيق:

١. **قيامُ الليل؛** الذي به تُزكّى النفوس، وتستقيم السرائر، وتُصفّى المقاصد في خلوة الصدق مع الله.

٢. **الوِردُ القرآنيّ اليومي؛** الذي به يحيا القلب كما تحيا الأرض بوابل الغيث، ويُسقى من معين الوحي الصافي.

٣. **الإلحاحُ في الدعاء؛** وهو بوابةُ التوفيق، ومفتاحُ خيرَي الدنيا والآخرة، فما طُرق بابٌ أكرم من بابه.

٤. **لهجُ اللسان بالذِّكر؛** وهو منشورُ الولاية، ومفتاحُ دار السعادة، وبه تألف الروحُ ربَّها وتأنس بقربه.

٥. **التبكيرُ إلى الصلاة؛** وهو سبقٌ إلى الفضل والبركة، ومصافحةٌ لدعاء الملائكة: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه.

وما زاد عبدٌ من هذه الخصال إلا فُتِح له، ولا نقص عنها إلا نُقص من حظه.

فهي والله ليست عاداتِ أوقاتٍ، بل عاداتُ قلوب، وأقدارُ توفيق؛ من أقامها أقامته، ومن هجرها هجرته، ومن أخذ بها سبق، ومن فرّط فيها حُرِم، ومن ظنّ أن الفتح يُنال بغيرها، فقد طلب الثمر بلا جذر، والنور بلا زيت.

ولهذا لمَّا سُئِلَ أحدُ المشايخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سرِّ تأثيرِ دروسِهِ العميقِ في الناسِ دونَ غيرِهِ، قالَ بعدَ تمنُّعٍ وإلحاحٍ من السائلِ: "يا بُنَيَّ، لولا الحاجةُ لم أتكلَّمْ، إنَّ هذا الدرسَ الذي تسمعُهُ يا بُنَيَّ مدعومٌ بقراءةِ عشرةِ أجزاءٍ من القرآنِ قبلَ الفجرِ بقصدِ أن ينفعَ اللهُ المسلمينَ بما أتحدَّثُ به".

وكأنَّ كلماتِهِ تقولُ: ليسَ العلمُ وحدَهُ الذي يؤثِّرُ، بل القلبُ إذا أضاءَ أشرقَ على من حولَهُ.

ثم يأتي ابنُ الحاجِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِهِ المدخلِ (٢/ ١٣٧) فيضعُ الميزانَ بما يبلغُ ذروةَ المعنى فيقولُ: "ولعلَّكَ تقولُ: إنَّ طالبَ العلمِ إن فعلَ ما ذكرتموهُ [أي قيامَ الليلِ] تعطَّلتْ عليه وظائفُهُ

من الدرسِ والمطالعةِ والبحثِ.

فالجوابُ: أنَّ نفحةً من هذه النفحاتِ تعودُ على طالبِ العلمِ بالبركاتِ والأنوارِ والتُّحَفِ ما قد يعجزُ الواصفُ عن وصفِهِ، وببركةِ ذلكَ يحصلُ له أضعافُ ذلكَ فيما بعدُ، مع أنَّ هذا أمرٌ عزيزٌ قلَّ أن يقعَ إلا للمعتني به، والعلمُ والعملُ إنَّما هما وسيلتانِ لمثلِ هذه النفحاتِ".

فما أبهى هذا الختامَ!

وكأنَّ صوتَ ابنِ الحاجِّ يهمسُ للدعاةِ والباحثينَ والمربينَ: اعمروا ليلَكم ليُثمرَ نهارُكم، وجدِّدوا زادَكم القلبيَّ، فـ"لولا اللازِمُ لما وُجِدَ المتعدِّي".

فما أنفعَها من كلمةٍ لو عقلتَها!

نعمْ، إنَّ العملَ المتعدِّي لا يزدهرُ إلا في تربةِ الإخلاصِ، ولا يثمرُ إلا بماءِ العبادةِ.

فليكنْ لكَ من الليلِ نصيبٌ، ومن الخلوةِ زادٌ؛ فإنَّكَ إن أصلحتَ الداخلَ أصلحَ اللهُ لكَ الخارجَ.

قالَ سلمانُ الفارسيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ جَوَّانِيًّا وَبَرَّانِيًّا، فَمَنْ يُصْلِحْ جَوَّانِيَّهُ يُصْلِحِ اللهُ بَرَّانِيَّهُ، وَمَنْ يُفْسِدْ جَوَّانِيَّهُ يُفْسِدِ اللهُ بَرَّانِيَّهُ". الزهدُ لابنِ المباركِ (١٧).

وصدقَ الشيخُ حينَ قالَ: "لولا اللازِمُ، ما وُجِد المتعدِّي"

يَا رَبِّ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا
وَاجْعَلْ مَعُونَتَكَ الْحُسْنَى لَنَا مَدَدًا
وَلَا تَكِلْنَا إِلَى تَدْبِيرِ أَنْفُسِنَا
فَالنَّفْسُ تَعْجِزُ عَنْ إِصْلَاحِ مَا فَسَدَا
أَنْتَ الْكَرِيمُ وَقَدْ وَجَّهْتُ يَا أَمَلِي
إِلَى جِنَابِكَ قَلْبًا سَالِمًا وَيَدًا
فَلَا تَرُدَّنَّهَا يَا رَبِّ خَائِبَةً
فَبَحْرُ جُودِكَ يَرْوِي كُلَّ مَنْ وَرَدَا

- **اللهم يا مَن بيدِهِ صلاحُ القلوبِ واستقامةُ الأعمال**، أصلِح لنا بواطنَنا قبل ظواهِرِنا، وأحيِ قلوبَنا بنورِ عبادتِك، ولا تكلْنا إلى أنفسِنا طرفةَ عين.

- **اللهم اجعل لنا من خلواتِ الليلِ زادًا مقبولاً**، ومن مناجاتِك مددًا مسموعًا، ومن صدقِ الإقبالِ عليك قوّةً وثباتًا.

- **اللهم بارِك لنا في أعمالِنا وأقوالنا، واهدنا وسددنا، وارزقنا الصدق والإخلاص والقبول**، واجعل قلوبًا عامرةً بك، متوكلة عليك، مستعينة بك، قائمةً بين يديك، إنك وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

❋❋❋